صفات عباد الرحمن

١ - التواضع

● **الخطبة الأولى :**

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور .

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، خصّنا بخير كتاب أنزل ، وأكرمنا بخير نبىّ أرسل ، وجعلنا بالإسلام خير أمّة أخرجت للناس ، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونؤمن بالله ، وأتمّ علينا النعمة بأعظم دين شرعه الله لعباده : دين الإسلام ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا . . ﴾ (١) ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (٢) .

وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله ، أدّى الأمانة ، وبلّغ الرسالة ، ونصح للأمّة ، وجاهد فى الله حقّ جهاده ، وتركنا على المحجّة البيضاء ، على الطريقة الواضحة الغرّاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلاّ هالك ، فمن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزًا عظيمًا ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبينًا ، اللهم صلّ وسلّم وبارك على هذا النبى الكريم ، وعلى آله وصحابته ، وأحينا اللهم على سنّته ، وأمتنا على ملّته ، واحشرنا فى زمرته ، مع الذين أنعمت عليهم من النبيّين والصّدّيقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا .

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

يقول الله تبارك وتعالى فى كتابه وهو أصدق القائلين :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ

---

(١) المائدة : ٣ .

(٢) آل عمران : ٨٥ .

الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا * وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا * أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَمًا * خَالِدِينَ فِيهَا ، حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [1] صدق الله العظيم .

هذه لوحة قرآنية رُسمت فيها شخصيّة (عباد الرحمن) ، وضّح الله فيها المعالم والتقاسيم لهذه الفئة المختارة من الناس ، جعلهم الله نموذجًا يُحتذى ، وأسوة بها يُقتدى .

عباد الرحمن: هم العباد المنسوبون إلى الله وحده ،إذا كان هناك عباد للشيطان أو للطاغوت أو للشهوات أو للدينار والدرهم«تعس عبد الدينار،وعبد الدرهم ،وعبد الخميصة . - زاد في رواية«وعبد القطيفة»- إن أعطي رضي،وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس،وإذا شيك فلا انتقش . . » [2] ، إذا كان هناك عبيد الكاس والطاس ،

---

(١) الفرقان : ٦٣ - ٧٦ .

(٢) جزء من حديث رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، و« القطيفة » : كساء له خمل يُجعل دثارا ، و« الخميصة » : ثوب مُعلّم من خزّ أو صوف ، و« انتكس » : أي انقلب على رأسه خيبة وخسارا ، و« شيك » : أي دخلت في جسمه شوكة ، و« الانتقاش » : نزعها بالمنقاش ، وهذا مثل معناه : إذا أصيب فلا انجبر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٣٦٨ - ٣٦٩ ، الحديث ٦٥٨) .

إذا كان هناك عبيد المسكرات والمخدّرات ، إذا كان هناك عبيد المرأة والغريزة ، فإنّ هناك (عباداً للرحمن) .

هؤلاء العباد الذين أيس الشيطان نفسه أن يتسلّل إليهم ، أو يجد منفذاً لإغرائهم والسيطرة عليهم ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (١) . وقال عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ (٢) .

هؤلاء هم العباد المنسوبون إلى ذات الله تعالى المقدّسة : عباد الرحمن ، وقد رضى الله أن ينسبهم إلى ذاته باسم (الرحمن) الذى يشعر بأنّهم أهل لرحمة الله عزّ وجلّ ، وأنهّم فى دائرة هذه الرحمة ، وأنّ الرحمة تحيطهم عن يمين وعن شمال ، ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم ، فهم عباد الرحمن .

وقبل ذلك - فى هذه السورة - قال الله تعالى عن المشركين: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾(٣) فإذا كان هؤلاء يجهلون: ما الرحمن ، فإنّ هناك أناسًا يعرفون الرحمن ، ويَقدُرونه حقّ قدره، ويؤدّون له حقّه، وهم عباده المخلِصُون والمخلَصُون ، أخلصوا دينهم لله ، وأخلصهم الله لدينه .

أتريد أن تكون من عباد الرحمن ؟ أتريد أن تنتسب إلى الله عزّ وجلّ ؟ أتريد أن تكون واحدًا من هؤلاء ؟ أتريد أن تكون عضوًا فى هذه الجماعة ؟ وأن تكون عبدًا من عباد الرحمن وحده ؟ إذن فاعرف مقوّماتهم وخصائصهم وصفاتهم ، اعرف من هم (عباد الرحمن) حتى تجتهد أن تكون واحدًا منهم ، فالمسألة ليست بالكلام ، القضيّة ليست دعوى ، فما أكثر الدعوى وما أعزّ المعنى .

ما أكثر من يقول : أنا من عباد الرحمن ، ولكن أفعاله تنطق وتدلّ عليه وتقول له : أنت من عباد الشيطان ولست من عباد الرحمن .

عباد الرحمن لهم خصال وصفات وسمات ، ذكرها الله فى هذه الآيات ، وما أجدرنا أن نعيش فى رحاب هذه الآيات جُمَعًا وجُمَعًا .

---

(١) سورة ص : ٨٢ ، ٨٣ . (٢) الإسراء : ٦٥ . (٣) الفرقان : ٦٠ .

أوّل سمات عباد الرحمن : أنّهم يمشون على الأرض هونا . انظروا كيف بدأ الله أوصاف عباد الرحمن بهذه الصفة : ﴿ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ ، أللمشى هذا الاعتبار كلّه ؟! كيفيّة المشى ، صفة المشى ، لها قيمة عند الله ؟!

نعم ، لأنّها تعبرّ عن الشخصيّة ، تعبّر عمّا يستكنّ فيها من مشاعر وأخلاق ، فالمتكبرون الجبارون لهم مشية ، والمؤمنون المتواضعون لهم مشية ، كلٌّ يمشى معبّرًا عمّا فى ذاته .

عباد الرحمن يمشون على الأرض هونا ، يمشون متواضعين هيّنين ليّنين ، يمشون بسكينة ووقار ، لا بتجبّر ولا استكبار ، لا يستعلون على أحد ، لا ينتفشون ولا ينتفخون ، لا يمشى أحدهم ،وكأنّه يقول : يا أرض انهدّى ما عليك قدّى . لا ، إنّه يمشى مشية من يعلم أنّه من الأرض خرج وإلى الأرض يعود ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (١) .

وفى وصايا الله - الوصايا الحكيمة فى سورة الإسراء ، كان النّهى عن مشى المرح والأشر والبطر والاختيال والفخر إحدى هذه الوصايا : ﴿ وَلاَ تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ ﴾ : مهما دببت برجليك ، ﴿ وَلَن تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً ﴾ : مهما تطاولت بعنقك ، وشمخت برأسك ، فامش إذن متواضعًا حتى يحبّك الله ، وحتى يحبّك النّاس ، فالله لا يحبّ المختال الفخور ،ولهذا نجد القرآن فى آية ثالثة يحكى لنا عن وصيّة لقمان لابنه وهو يعظه ، فكان من وصاياه : ﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ، إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (٣) .

﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ : لا تكلّم النّاس وأنت معرض عنهم، مشيح عنهم بوجهك ، ولا تجعلهم يكلّمونك وأنت معرض عنهم ، بل أقبل عليهم، وكلّمهم ووجهك منبسط إليهم .

---

(١) طه : ٥٥ .
(٢) الإسراء : ٣٧ .
(٣) لقمان : ١٨ ، ١٩ .

﴿ وَلاَ تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ : المختال الذى يظهر أثر الكِبْر فى أفعاله ، والفخور الذى يظهر أثر الكبر فى أقواله، فهو يقول: أنا فلان ،وابن فلان ، ومن أسرة فلان .

الله لا يحبّ المختال ولا يحبّ الفخور ، إنّما يحبّ الله المتواضع الذى يعرف قدر نفسه ، ولا يحتقر أحدًا من النّاس .

﴿ .. الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ : ليس معنى مشى الهَوْن أنّهم يمشون متماوتين متمارضين ، كما يفعل بعض من ينتسب إلى التقوى والصلاح ، فهو يتماوت ويتصنّع ، لا ، ما كان هكذا رسول الله ﷺ ، ولا كان أصحابه .

كان النّبى ﷺ - كما روى عنه علىّ بن أبى طالب - إذا مشى تكفّأ تكفؤًا كأنّما ينحطّ من صبب[1] وهى مشية أولى العزم والهمّة والشجاعة،كما قال ابن القيّم رحمه الله [2] . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله ﷺ ، كأنّ الشمس تجرى فى وجهه،وما رأيت أحدًا أسرع فى مشيته من رسول الله ﷺ ، كأنّما الأرض تُطوى له ، وإنّا لنجهد أنفسنا وإنّه لغير مكترث [3] .

هكذا ، لم يكن ﷺ متماوتًا ولا بطيئًا ، وليس معنى (السرعة) هنا : السرعة التى تذهب بالوقار ، بل الوسط ، لا بالسريع المفْرط ، ولا بالبطىء المفّرط . هذا هو مشى المؤمنين ، مشى فيه قوّة ،وفيه - فى نفس الوقت - تواضع .

وهكذا كان عمر رضي الله عنه ، رأى شابًا يتماوت فى مشيته ، فقال : أأنت مريض ؟ قال : ما أنا بمريض ، قال : إذًا فلا تمشى هكذا ، وعلاه بدرّته .

أمره أن يمشى مشى الأقوياء المتواضعين .

ورأت إحدى الصحابيات شبانًا يمشون متهالكين متماوتين ، فسألت عنهم : من هؤلاء ؟ قالوا : هؤلاء نسّاك - عبّاد ، قالت : والله لقد كان عمر إذا مشى أسرع ، وإذا تكلّم أسمع ، وإذا ضرب أوجع ، وكان هو النّاسك حقا !

كلّ أفعاله تدلّ على القوة ، ليس بالمتماوت .

فليس معنى المشى الهون أنّهم يمشون متماوتين ، لا ، ما يريد الإسلام هذا الإنسان المتماوت المتمارض .

---

(١) أى : كأنّه ينزل من مرتفع إلى منحدر .

(٢) فى كتابه القيّم : (زاد المعاد فى هدى خير العباد) .

(٣) يراجع فصل : (فى هديه ﷺ فى مشيه وحده ومع أصحابه) من كتاب (زاد المعاد للإمام ابن القيم : ١/١٦٧ - ١٦٩) بتحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط .

رأى عمر بعض النّاس يتخشّع فى صلاته ويتصنّع ويطأطىء رقبته ، فعلاه بالدّرّة وقال : يا هذا ، ارفع رأسك ، لا تمت علينا ديننا أماتك الله ، إنّ الخشوع فى القلوب ليس الخشوع فى الرقاب !

فهذا ما نريده بالمشى الهون .

﴿ . . . الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ : أى يمشون ليّنين متواضعين مع القوة أيضًا ، والسرعة المتوسّطة على حسب مقدرتهم وسنّهم واستطاعتهم .

التحذير كلّه أن يمشى الإنسان فى الأرض مرحا ، وأن يمشى الإنسان فى الأرض مختالاً ، قد حذّر النبى ﷺ من ذلك أشدّ التحذير وقال : « من تعظّم فى نفسه أو اختال فى مشيته ، لقى الله تبارك وتعالى وهو عليه غضبان » (١) . وقال : « بينما رجل - ممّن كان قبلكم - يتبختر يمشى فى بُرديه ، قد أعجبته نفسه ، فخسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » (٢) ، يمشى متبخترًا فى بُرديه ، معجبًا بنفسه ، شامخًا بأنفه ، ثانيًا لعطفه ، مصعّرًا لخدّه ، فخسف الله به الأرض ، كما خسف بقارون حينما خرج على قومه فى زينته ، مختالاً مفتخرًا ، فخسف الله ﴿ . . . به وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ (٣) .

علام إذًا يستكبر النّاس ؟ علام يتجبّرون ؟ علام يستعلون على غيرهم ؟ لو نظروا إلى أنفسهم لوجدوا - كما قال الإمام الغزالى - أنّ أباهم الماء المهين وجدّهم التراب ،وكما قال تعالى : ﴿ . . وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ (٤) .

---

(١) رواه أحمد فى مسنده عن ابن عمر بهذا اللفظ،وصحّحه الشيخ شاكر برقم(٥٩٩٥) ، وقال الهيثمى : رجاله رجال الصحيح (١/ ٩٨) ، كما رواه الطبرانى فى الكبير ، ورواته محتجّ بهم فى الصحيح كما قال المنذرى ، وكذا رواه الحاكم بنحوه وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى (١/ ٦٠) ، ونسبه فى الجامع الصغير إلى أحمد والبخارى فى الأدب المفرد ورمز لحسنه (٢/ ١٦٩) ، قال المناوى فى الفيض : وهو كما قال أو أعلى (٦/ ١٠٦ برقم ٨٥٩٨) ، وأنظر : (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوى : ٢/ ٧٥٩ - ٧٦٠ برقم ١٧٦٦) .

(٢) رواه مسلم فى كتاب (اللباس والزينة) عن أبى هريرة برقم(٢٠٨٨) ، ونحوه فى البخارى أيضًا فى اللباس (البخارى مع الفتح: ١٠/ ٢٥٨) ، وانظر : اللؤلؤ والمرجان (١٣٥١) .

(٣) القصص : ٨١ ، وأوّلها : « فخسفنا » . (٤) السجدة : ٧، ٨ .

رأى مطرّف بن عبد الله بن الشّخّير : المهلّب يمشى متبخترًا ، فغمزه ونهاه عن هذه المشية وقال : إنّ هذه مشية يبغضها الله عزّ وجلّ ، وكان المهلّب قائدًا من القوّاد الكبار فقال له : أما تعرفنى ؟ قال له : نعم ، أعرفك وأعرف أوّلك وآخرك ، أوّلك نطفة مذرة ،وآخرك جيفة قذرة ، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة !

أوّلك نطفة . . ماء مهين ، كما ورد عن بعض السلف : عجبت لمن جرى فى مجرى البول مرّتين كيف يتكبّر ؟! لأنّه وهو نطفة خارج من أبيه جرى فى مجرى البول ، وهو أيضًا حينما وُلد جرى فى مجرى البول ، وقال الحسن : عجبت لمن يغسل الخُرء بيده مرّة أو مرّتين كلّ يوم كيف يتكبرّ على جبّار السموات .

لماذا يتكبّر الإنسان ؟ علام يتكبّر ؟ وعلام يختال ؟ وعلام يفتخر على غيره ما دام أوّله نطفة وآخره جيفة ؟! آخره الموت الذى يسوّى بين الكبيروالحقير ،والغنِىّ والفقير ، الكلّ ينتهى عند هذه الغاية ، فعلام يتكبّر المتكبرّون ؟

الأرض التى يمشى عليها الإنسان مرحًا ، هذه الأرض تُرى ماذا وارت من الكبار؟ ماذا وارت من الأثرياء ؟ ماذا وارت من الأمراء ؟ ماذا وارت من الملوك؟

يقول الشاعر الصالح :

ولا تمش فوق الأرض إلاّ تواضعًا ... فكم تحتها قوم همو منك أرفع
وإن كنت فى عزّ وجاه ومنعة ... فكم مات من قوم همو منك أمنع

أبو العلاء المعرّى له قصيدة رائعة يقول فيها :

صاح هذى قبورنا تملأ الرحب ... فأين القبور من عهد عاد ؟!
خفّف الوطء ، ما أظنّ أديم الأ ... رض إلاّ من هذه الأجساد !
سر إن استطعت فى الهواء رويدًا ... لا اختيالاً على رفات العباد !
فقبيح بنا وإن قدم العهد ... هوان الآباء والأجداد !

ما يدريك لعلّ الأرض التى تمشى عليها مقبرة قديمة ذابت وبليت فيها عظام قوم كانوا من كبراء النّاس .

نحن على حداثة عهدنا رأينا مقابرواسعة فِى قطر فُتحت وامتلأت وأُغلقت ، وفتحت أخرى وتمتلىء وتُغلق .

فأين قبور من كان قبلنا ؟ من يدرى أنّ الأرض التى نمشى عليها هى مقابر

قديمة؟ من يدرى لعلّ الأرض التى تختال عليها برجليك أو بسيّارتك تنهب الأرض نهبًا ،إنّما هى مقابر لعظماء من النّاس من قديم .

لا تمش فى الأرض مرحًا ، اعرف قدرك أيّها الإنسان ، تواضع لله ، فمن تواضع لله رفعه [1] ، فهو فى نفسه حقير وعند الناس كبير ، ومن تكبّر وضعه الله، فهو فى نفسه كبير وعند النّاس حقير .

إذا كان الإنسان يختال ويفتخر ويتعاظم ليكون عظيمًا عند الناس ، فالعكس هو الصحيح ،إنّ هذا يحقّره عند الناس ، ويجعله بغيضًا إلى النّاس كما هو بغيض إلى الله عزّ وجلّ .

ولهذا كان على الإنسان المؤمن أن يتواضع - وكما قالت عائشة رضي الله عنها : أفضل عبادة للمؤمنين التواضع - كما كان رسول الله ﷺ أكثر النّاس تواضعًا ، على ما له من مقام عند الله وعند النّاس ، كان يمشى خلف أصحابه كواحد منهم ، وكان يجلس بينهم لا يتميّز عليهم ، حتى إنّ الرجل الغريب ليأتى فيقول : أيّكم محمّد ؟ أيّكم ابن عبد المطّلب ؟ لأنّه لا يتميّز بشىء عن أصحابه ، وكان فى بيته يكون فى مهنة أهله ، يرقع ثوبه ،ويخصف نعله ، ويحلب شاته ،ويطحن مع الجارية والغلام ، بيديه الكريمتين ﷺ .

على الإنسان المؤمن أن يتعلّم التواضع ،وأن يمشى فى الأرض هونا ، هذه أوّل صفات (عباد الرحمن) .

التواضع يظهر أثره فى المشى ،وتزيد المرأة المسلمة فى صفة المشى، أنّها تمشى على استحياء ، كما وصف الله تلك المرأة ابنة الشيخ الكبير فقال : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ .. ﴾ [2] ، وقال تعالى : ﴿ .. وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ .. ﴾ [3] .

إنّ القبول عند الله وعند النّاس ليس بالخيلاء ولا بالافتخار ، فالله لا ينظر إلى

---

(١) روى مسلم ، والترمذى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال : « ما نقصت صدقة من مال ،وما زاد الله عبدًا بعفو إلاّ عزًّا ، وما تواضع أحد لله إلاّ رفعه الله » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٧٥٥ برقم ١٧٥١) .

(٢) القصص : ٢٥ .

(٣) النوّر : ٣١ .

من جرّ إزاره خيلاء ، لا ينظر إلى من استكبر على عباد الله ، وبحسب امرئ من الشرّ أن يستكبر على أخيه المسلم، إنّما ينظر الله إلى المتواضعين ، الذين تواضعوا لله، وتواضعوا لعباده، حتى انّ الله تعالى مدح الذلّة على المؤمنين بقوله فى وصف عباده المخلصين : ﴿ .. أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ .. ﴾ (١) .

نسأل الله عزّ وجلّ أن يجعلنا من عباد الرحمن ﴿ الَّذِينَ يَستَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (٢) .

استغفروا ربّكم إنّه هو الغفور الرحيم،وادعوه يستجب لكم .

* *

● **الخطبة الثانية :**

الحمد لله ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ ، لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ، إِلَيْهِ المَصِيرُ ﴾ (٣) ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحـــــده لا شريك له ﴿ .. بِيَدِه الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ، وَهُوَ العَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ (٤) .

وأشهد أنّ محمّدًا عبده ورسوله ، السراج المنير ، والبشير النذير ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ، ومن دعا بدعوته ، واهتدى بسنّته ، وجاهد جهاده إلى يوم الدين .

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

فى هذا الأسبوع حضرت المؤتمر العالميّ الثانى للدعوة الإسلامية والدعاة المسلمين فى المدينة المنورّة ، فى رحاب حرم رسول الله ﷺ ، وبدعوة من الجامعة الإسلاميّة هناك،واتخذ المؤتمر توصيات هامّة كثيرة .

ومن هذه التوصيات توصية أقولها لكم الآن وهى :

نداء إلى جميع الحكومات والمؤسّسات والشركات والأفراد المسلمين، أن يستغنوا عن العمالة الأجنبيّة بالعمالة الإسلاميّة ،وأن يستخدموا المسلمين قبل غيرهم ، فإنّ العمالة الأجنبيّة الوافدة قد كثرت فى بلاد المسلمين ،وخاصّة فى بلاد الخليج .

---

(١) المائدة : ٥٤ . (٢) الزمر : ١٨ . (٣) غافر : ٣ . (٤) الملك : ١ ، ٢ .

وهذا خطر على الطابع الإسلامى لهذه البلاد ،وخطر على البيوت الإسلامية أن يدخلها غير المسلمين وغير المسلمات ، وبخاصّة المرّبيات والمشرفات على تربية الأبناء والبنات ، وقد قال النبى ﷺ : « لا تصاحب إلاّ مؤمنًا ، ولا يأكل طعامك إلاّ تقِىّ » (١) ، فالذى يدخل بيتك ويعاشرك ويصاحبك ويأكل طعامك ، ويطّلع على عوراتك ، ويعرف أمورك ، ينبغى أن يكون مسلمًا ، بل ينبغى أن يكون من أصلح المسلمين كلّما استطعنا ذلك .

فهذا النداء إلى الناس أن يتحرّوا فى هذه النقطة ،وأن يبادروا إلى اختيار المسلمين قبل كلّ شىء والمسلمات قبل كلّ شىء ، فهذا نداء وهذه توصية أحببت أن أبلّغها إليكم لكثرة ما أرى من دخول غير المسلمين وغير العرب إلى هذه البلاد وإلى غيرها .

فليتحرّ كلّ مسلم وكلّ مسلمة يسمع هذا ،وخاصّة فى البيوت ، والإشراف والتربية ، فلا ينبغى أن نعطى أولادنا وأطفالنا لغير المسلمين ولغير المسلمات يلقّنونهم مالا نعرف ، أوما نعرف أنّه ضدّ الدين .

النّبىّ ﷺ يقول : « كلّ مولود يولد على الفطرة ، حتى يعرب عنه لسانه ، فأبواه يهوّدانه أوينصّرانه أو يمجّسانه » (٢) .

والمربية تصبح بمنزلة الأبوين ، فلهذا ينبغى أن نعى هذا الخطر ،وأن ندركه، وأن نحاول العمل بهذه التوصية .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يفقهنا فى ديننا ،وأن يعلّمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما علّمنا ، إنّه سميع قريب .

اللّهمّ أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه ، ورواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد،ووافقه الذهبى،من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه . (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٧٩٠ ، الحديث ١٨٥١) .

(٢) رواه أبو يعلى ، والطبرانىّ فى الكبير ،والبيهقىّ فى السنن،عن الأسود بن سريع ، ورمز له السيوطى بالصحة فى الجامع الصغير (٢/ ٩٤) وانظر تعليق المناوىّ عليه فى الفيض (٥/ ٣٣- ٣٤ برقم ٦٣٥٦) .

معاشنا،وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ،واجعل الحياة زيادة لنا فى كلّ خير ، واجعل الموت راحة لنا من كلّ شرّ ·

اللّهمّ اجعل يومنا خيرًا من أمسنا ،واجعل غدنا خيرًا من يومنا ، وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلّها ، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ·

اللّهمّ أكرمنا ولا تهنّا ،وأعطنا ولا تحرمنا ، وزدنا ولا تنقصنا ،وآثرنا ولا تُؤثر علينا، وارض عنّا وأرضنا ·

اللّهمّ انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام ، اللّهمّ انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام ، اللّهمّ انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام ، اللّهمّ إنّا نجعلك فِى نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم ، اللّهمّ اجمع كلمتنا عليهم ·

اللّهمّ اجمع كلمة المسلمين على الهدى والتقى ، والجهاد فى سبيلك يا ربّ العالمين ·

﴿ ·· رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾ (١) .

﴿ ·· رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

وصلّ اللّهمّ على عبدك ورسولك محمّد ، وعلى آله وصحبه ، وسلّم تسليمًا كثيرًا ·

﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٣) .

وأقم الصلاة ·

* * *

(١) آل عمران : ١٤٧ ·
(٢) الحشر : ١٠ ·
(٣) الأحزاب : ٥٦ ·

صفات عباد الرحمن
٢ - الحِلمُ

● **الخطبة الأولى :**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

كنّا نتحدث عن صفات عباد الرحمن ، الذين ذكرهم الله تعالى فى أواخر سورة الفرقان ،وتحدثنا عن **الصفة الأولى** من صفاتهم وهى أنّهم : ﴿ .. يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا .. ﴾ (١) .

ثمّ ذكر الله الصفة الثانية من صفاتهم فقال : ﴿ .. وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ﴾ (٢) ، صفتهم فى أنفسهم : التواضع ، أنّهم هّينون ليّنون ، متواضعون غير مستعلين ولا مستكبرين ، « .. وما تواضع أحد لله إلاّ رفعه الله » (٣) .

والصفة الثانية : حالهم مع النّاس وخاصّة مع أهل الجهل والسفه : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ﴾ .

قالوا قولاً يسلمون فيه من الإثم ، ويسلمون فيه من اللّوم ، ويسلمون فيه من سوء العاقبة ،لا يردُّون على السَّيِّئة بالسَّيِّئة وإن كان هذا من حقهم ،وإن كانوا يقدرون على أن يكيلوا الصاع صاعين ، وأن يردّوا اللّطمة لطمتين ، ولكنّهم لا يشغلون أنفسهم بالرّدّ على الجهّال والسفهاء ، لا ، إنّهم : ﴿ .. إِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ﴾ : قالوا قولاً سديدًا يليق بهم ،يليق بحالهم مع الله ، يليق بحالهم مع الآخرة ، يليق بما نصبوا أنفسهم له من نصرة الدين وإقامة الحق فى الأرض .

---

(١) ، (٢) الفرقان : ٦٣ .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه - كتاب البرّ والصلة والآداب ، باب استحباب العفو والتواضع - من حديث أبى هريرة - رضي الله عنه - ، وأوّله : « ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدًا بعفو إلاّ عزًّا .. » .

﴿ قَالُوا سَلاَمًا ﴾ : قالوا لهم سلام عليكم ، كما حكى الله تعالى عن جماعة من المؤمنين : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِى الْجَاهِلِينَ ﴾ (١) :

لنا طريق ولكم طريق ،ولا نحبّ أن نتنازل عن طريقنا لنمشى فى طريقكم .

هذا هو شأن عباد الرحمن: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ﴾ ، والجهل هنا ليس هو (الجهل ضدّ العلم) ، ولكنه أكثر ما يكون (الجهل ضدّ الحلم) .

الجاهل السفيه قد يحمل شهادة عالية ، قد يتسنّم أرفع المناصب ، ولكنّه جاهل فى نفسه ، سيّىء الخلق . قد يكون له لسان ،وقد يكون له قلم يكتب به فى كبريات الصحف ، ولكنّه سفيه جاهل ، يمكّن لسانه وقلمه من أعراض الشرفاء من النّاس .

هؤلاء إذا خاطبوا عباد الرحمن ﴿ قَالُوا سَلاَمًا ﴾ ، قالوا : ﴿ .. سَلاَمٌ عَلَيْكُم لاَ نَبْتَغِى الجَاهِلِينَ ﴾ ، هؤلاء هم الجاهلون كما قال الشاعر الجاهلّى :

ألا لا يجهلنّ أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

(الجاهل) فى نظر القرآن هو : كلّ من عصى الله عزّ وجلّ ، كلّ من غلّب الهوى على الحق ، كلّ من غلّب الشهوة على العقل .

يوسف عليه السلام لّما راوده النّسوة عن نفسه قال : ﴿ .. وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٢) .

موسى عليه السلام حينما أمر قومه أن يذبحوا بقرة ﴿ ... قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا، قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٣) :

أى أن يهزأ فى موضع الجدّ ، وأن يتكلّم بالسخرية فى موضع الحق ،هذا شأن الجاهلين .

فكلّ من عصى الله - كما قال السلف - فهو جاهل ، وكلّ سيىّء الخلق فهو جاهل .

عباد الرحمن لا يشغلون أنفسهم بمعركة دائمة مع الجاهلين .

---

(١) القصص : ٥٥ . (٢) يوسف : ٣٣ .

(٣) البقرة : ٦٧ .

الجاهلون ملء الأرض ، لو شغل الإنسان نفسه بهم ، فلن تستقيم له حياة ، ولن يستطيع أن يؤدّى عمله ، ولن تستريح له نفس ، أو يطمئنّ له قلب ، سيتعب وسيشغل نفسه بالباطل ، ولهذا ينزّهون أنفسهم عن الردّ على هؤلاء ،وإن كان لهم الحقّ فى أن يردّوا السّيّئة بمثلها ، ولكنّهم يعفون ويصفحون ولا يقولون إلاّ حقًّا ، فكلّ إناء بالذى فيه ينضح .

قالوا : إنّ المسيح عليه السلام مرّ على جماعة من اليهود ، فقالوا فيه شرًّا ، وقال فيهم خيرًا ، فقالوا له : يقولون فيك شرًّا وتقول فيهم خيرا !! قال لهم : كلّ ينفق ممّا عنده .

من كان عنده الخير أنفق الخير ، ومن لم يكن فى جعبته إلاّ الشرّ والخبث أنفق الشرّ والخبث ،وهذا ما قاله الشاعر العربىّ قديمًا :

ملكنا فكان العفو منّا سجيّة فلمّا ملكتم سال بالدم أبطح

فحسبكم هذا التفاوت بيننا وكلّ إناء بالذى فيه ينضح

عباد الرحمن إذا خاطبهم الجاهلون ﴿ قَالُوا سَلَامًا » ،نزّهوا ألسنتهم أن تُلوّث باللغو من الكلام ، فلسان المؤمن جدير أن يملأه ويرّطبه بذكر الله عزّ وجلّ ، بتلاوة القرآن ، بالتسبيح ، بالتحميد ، بالتهليل ، بالتكبير ، بالاستغفار ، بشىء من هذا .

أمّا بالردّ على الجهّال - وما أكثرهم ! - فينزّه لسانه عنه ، ويحرص على وقته .. على عمره أن يضيع فى هذا الباطل .

العمر ثمين ، والوقت نفيس ، وهوكالسيف إن لم تقطعه قطعك ، ولهذا كان على عباد الرحمن أن يعمروا أوقاتهم بالخير ، وأن يعرضوا فيها عن اللّغو .

ومن هنا كان من أوصاف المؤمنين الأولى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ (١) .

ينزّهون ألسنتهم ، يحفظون أوقاتهم وأعمارهم ، يحفظون صحائف حسناتهم ، يريدون أن تمتلىء بالحسنات والخيرات ، بدل أن يُكتب عليهم شىء من السّيّئات أو شىء لا لهم ولا عليهم .

يريدون أن يكونوا أصحاب الفضل يوم القيامة ، فقد جاء فى الحديث الذى

---

(١) المؤمنون : ٢،٣ .

رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه : « إذا جمع الله تعالى الخلائق نادى منادى : أين أهل الفضل ؟ فيقوم ناس هم يسير (أعداد قليلة ، ليسوا جمًّا غفيرًا) فينطلقون سراعًا إلى الجنّة ، فتلقاهم الملائكة فيقولون : إنّا نراكم سراعًا إلى الجنّة فمن أنتم ؟ فيقولون : نحن أهل الفضل ، فيقولون : ما كان فضلكم؟ فيقولون : كنّا إذا ظُلمنا صبرنا ،وإذا أُسيىء إلينا غفرنا ،وإذا جُهل علينا حلمنا ، فيقال لهم : ادخلوا الجنّة فنعم أجر العاملين » (١) .

عباد الرحمن يريدون أن يكونوا من أهل الفضل هؤلاء .

هناك مرتبتان: مرتبة العدل ومرتبة الفضل .

مرتبة العدل: أن تقابل السّيّئة بمثلها ، **ومرتبة الفضل**: أن ترتفع عن ذلك ، فتقابل السّيّئة بالحسنة ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلاَ تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَـــدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٢) .

إذا كانت هناك طريقتان : طريقة حسنة وطريقة أحسن منها ، فادفع بأحسن الطرق ،وبأحسن الوسائل ، بالكلمة الطيّبة ، بالفعل الجميل ، بالإحسان ، بتقديم خدمة حتى لمن أساء اليك: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾: كأنّه صديق قويّ الصداقة ،وذلك لأنّ الإنسان أسير الإحسان .

إذا أحسنت إلى إنسان، فإن إحسانك إليه يشدّه إليك ويقرّبه منك، كما قال القائل :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

جاء رجل إلى ترجمان القرآن وحبر الأمّة : عبد الله بن عباس ﷺ ، فسبّه وتطاول عليه ، فنظر ابن عباس إلى مولاه عكرمة وقال : يا عكرمة ، أنظر هل للرجل من حاجة فتقضيها له ؟ فنكّس الرجل رأسه واستحى وانصرف .

وتطاول رجل على علىّ زين العابدين بن الحسين بن علىّ ﷺ ، فكان عليه قميصه فأعطاه إيّاه ، وأمر له بألف درهم .

---

(١) قال البيهقىّ : هذا متن غريب وفى إسناده ضعف والله أعلم (شعب الإيمان : تحقيق محمد السعيد بن بسيونى زغلول ، ٦/٢٦٣ برقم ٨٠٨٦ ، باب فى حسن الخلق / فصل فى التجاوز والعفو وترك المكافأة) . (٢) فصّلت : ٣٤ .

هكذا كان الأفاضل الشرفاء الأبرار من النّاس يقابلون السّيّئة بالحسنة .

سُئل أنس بن مالك - خادم رسول الله ﷺ - عن هذه الآية : ﴿ ... ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (١) ما معناها ؟ قال : هو الرجل يشتمه أخوه فيقول له : إن كنت صادقًا فغفر الله لي ، وإن كنت كاذبًا فغفر الله لك !! .

أنظروا إلى هذه النفس الكبيرة ، يقول له : يا ظالم أو يا فاسق أو يا مرائى أو يا كذّاب أو يا كذا ، فيردّ عليه هذا الرد : إن كنتَ صادقًا وأنا ظالم أومراء أو فاسق فغفر الله لي ، وإن كنتَ كاذبًا فغفر الله لك كذبك .

وبهذا تنطفىء نار الغضب ،والغضب جمرة من النّار يلقيها الشيطان فى جوف ابن آدم ، فعليه أن يطفئها بالحلم ، بكفّ النفس واللسان .

ومن هنا كانت وصيّة النبى ﷺ لكثير ممّن استوصوه من الصحابة : « لا تغضب » .

سأله رجل وصيّة وقال له : أقلل يا رسول الله (يعنى أريد كلامًا قليلاً ، لا أستطيع أن أحفظ الكلام الكثير) فقال له : « لا تغضب » فأعاد عليه السؤال وأعاد عليه النبى ﷺ الجواب (٢) .

ومعنى « لا تغضب » : لا تطع الغضب ، أى إذا غضبت فكفّ نفسك ، ألجمها بلجام التقوى ، لا تطع شيطان الغضب فتتصرّف تصرّف السفهاء ، ومعناها أيضًا : لا تضع نفسك مواضع الغضب ، ابعد عن أسباب الغضب ما استطعت .

هذا هو شأن الإنسان المؤمن ، لا يغضب ولا يعرّض نفسه للغضب ، وإذا غضب أمسك لسانه ويده ، فلا يتكلّم إلاّ بخير ، ولا يبسط يده إلاّ إلى خير .

سبّ رجل رجلاً عند النبى ﷺ فقال المسبوب لسابّه كلّما شتمه : عليك

---

(١) فصّلت : ٣٤ .

(٢) جاء ذلك فى حديث جارية بن قدامة الذى رواه أحمد ، ورواته رواة الصحيح ، وابن حبّان فى صحيحه ، ولفظ أحمد : أنّ رجلاً قال : يا رسول الله ، قل لى قولاً واقلل لعلّى أعيه ،قال:«لا تغضب» فأعاد عليه مرارًا ، كلّ ذلك يقول : « لا تغضب » أنظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/٧٢٦ ، الحديث ١٦٥٣) .

السلام ، عملاً بهذه الآية الكريمة : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (١) ، فقال النبى ﷺ : « أما إنّ ملكًا بينكما يذبّ عنك ، كلّما يشتمك هذا ، قال له : بل أنت وأنت أحقّ به ، وإذا قال له : عليك السلام قال : لا بل لك أنت أحقّ به»(٢) .

أى أنّ الله يبعث من الملائكة من يذود عن هذا المظلوم الذى كفّ لسانه وغضبه، ولم يردّ على الجهل بمثله .

جاء فى صحيح البخارى(٣) : أنّ ابن عباس رضى الله عنهما قال : « قدم عيينة ابن حِصن بن حذيفة (أحد جفاة الأعراب وكان سيّدًا فى قومه) فنزل على ابن أخيه الحرّ بن قيس ، وكان من النفر الذين يُدنيهم عمر ، وكان القراء أصحاب مجالس عمر - رضي الله عنه - ومشاورته كهولاً كانوا أو شبّانا ، فقال عيينة لابن أخيه : يا ابن أخى لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لى عليه ، فاستأذن الحرّ لعيينة ، فأذن له عمر، فلمّا دخل عليه قال : هِىْ يا ابن الخطاب ، فوالله ما تعطينا الجَزْل ،ولا تحكـــم بيننا بالعدل ، فغضب عمر حتى همّ به ، فقال له الحّر : يا أمير المؤمنين ، إنّ الله تعالى قال لنبيّه ﷺ : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ ﴾ (٤) وإنّ هذا من الجاهلين .

« خذ العفو » : أى ما عفا لك وتيسّر من أخلاق النّاس ، عامل كلّ إنسان على قدر طاقته، ولا تتطلّب الكمال فِى النّاس .

« وأمر بالعرف » : ما تعرفه الفطر والعقول السليمة .

« وأعرض عن الجاهلين » : لا تشغل نفسك بهم .

وكان عمر - رضي الله عنه - وقّافًا عند كتاب الله عزّ وجلّ ، فما كاد يتلو هذه الآية ، حتى هدأ كلّ ما فى نفسه ، وأعرض عنه .

وهكذا ينبغى أن يكون الإنسان المؤمن : يعرض عن الجاهلين ، لا يشغل نفسه بهم ، إنّه مشغول بما هو أعظم من ذلك ، ليذكر الله تبارك وتعالى ، وليذكر الآخرة، وليذكر الحساب والجزاء .

---

(١) الفرقان : ٦٣ .

(٢) رواه أحمد (٥/ ٤٤٥) ، وذكره الهيثمى فى المجمع (٨/ ٧٥) وقال : رجاله رجال الصحيح غير أبى خالد الوالبى وهو ثقة .

(٣) كتاب التفسير ، باب : « خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » . أنظر : البخارى مع الفتح) برقم (٤٦٤٢) .

(٤) الأعراف : ١٩٩ .

أغلظ رجل لعمر بن عبد العزيز - وهو خليفة وأمير المؤمنين - فى القول ، ففكّر عمر وأطرق مليًا ، ثمّ قال له : أردت أن يستفزّنى الشيطان بسيف السلطان ، فأنال منك اليوم ما تناله منّى غدا ، لا والله .

أراد أن يستفزّه الشيطان لما له من سلطة ونفوذ ، فيعاقب الرجل بما عنده من قدرة وسلطان، وإذا عاقبه اليوم فقد يُنال منه غدًا ، لأنّ هناك قصاصًا يوم القيامة ، حتى يقتصّ للشاء الجمّاء - التى لا قرن لها - من الشاة القرناء ، إذا نطحت صاحبتها[1] .

هكذا كانت أمتّنا : أمّة حلم ،وأمّة علم .

كانوا لا يشغلون أنفسهم بالتوافه ، ولا يشغلون أنفسهم بمعارك .

عباد الرحمن يقولون : (سلاما) إذا خاطبهم الجاهلون ، لأنّهم مشغولون بما هو أعظم، مشغولون بدينهم ، مشغولون بآخرتهم ، مشغولون بأمر أمّتهم ، وليسوا مشغولين بالانتصار للنفس .

الذين ينتصرون لأنفسهم ، الذين يدورون حول ذواتهم ،الذين جعلوا من أنفسهم أصنامًا يُطاف بها ، هؤلاء هم الذين يعيشون فى معارك دائمًا .

من أجل كلمة يقيم أحدهم حربًا،من أجل لفظة يقولها هذا أو ذاك يمتلىء قلبه حقدًا ، ويدير الحياة من وراء ذلك على هذا الأساس ، يتخذ من هذا خصمًا ومن هذا عدوًا من أجل كلمة قيلت ،ولعلّها قيلت فى ثورة غضب .

عباد الرحمن ليسوا كذلك ، إذا غضبوا فإنّما يغضبون لله ، يغضبون لذات الله، يغضبون لحقّ العقيدة ، يغضبون لحقّ الشريعة ، يغضبون لحقّ الأمّة .

وهكذا كان رسول الله ﷺ ، لا يغضب لنفسه ، ولا يغضب للدنيا .

خدمه أنس بن مالك عشر سنين ، وقال فى ذلك : « خدمت رسول الله

---

(١) فقد جاء فى الحديث الذى رواه أحمد عن أبى هريرة رضي الله عنه ، أنّ رسول الله ﷺ قال : « يُقتصّ للخلق بعضهم من بعض ، حتى للجمّاء من القرناء، وحتى للذّرّة من الذّرّة » ورواته رواة الصحيح كما قال المنذرى ، وقال الشيخ القرضاوى معلّقًا على هذا الحديث : المقصود بهذا القصاص - والله أعلم - إبراز العدل الإلهى المطلق فى أبلغ صورة ،وأنّ أحدًا لن يضيع حقّه يوم القيامة،وإلاّ فإنّ هذه الحيوانات ليست مكلّفة،ولا ثواب لها ،ولا عقاب عليها (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٩٣٠ برقم ٢٢٥٩) .

ﷺ عشر سنين ، والله ما قال لى أفًّا قَطّ ،ولا قال لى لشىء لم فعلت كذا وهلاّ فعلت كذا » (١) .

هذا الخلق العظيم ، وهذه النفس السمحة ، وهذا الطبع الكريم ، كان فى شؤونه الشخصيّة ، ولكنّه كان يغضب إذا انتهكت حرمات الله عزّ وجلّ ، كان - كما قال علىّ - : « لا يغضب للدنيا، فإذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شىء حتى ينتصر له » (٢) .

كان يغضب لله ولا يغضب لشخصه ، وهذا هو شأن عباد الرحمن ، لا يغضبون لأنفسهم فى الشؤون الشخصيّة .. فى شؤون الأخذ والعطاء ، والبيع والشراء ،والتعامل والتحاسب ،والصحبة والجوار ، ولا يشغلون أنفسهم بمعارك جزئيّة ، إنّما يشغلون أنفسهم بمعركة الإسلام والوجود الإسلامِى وهذا ما ينبغى أن يعرفه المسلمون فى عصرنا .

من أراد أن يكون من عباد الرحمن ، فليدع هذه المعارك التى يفتعلها الناس بعضهم مع بعض .

الدنيا - والله - أهون من أن يتعارك عليها النّاس ، إنّها لا تزن عند الله جناح بعوضة ،والنفس أهون من أن يتقاتل عليها النّاس .

لماذا ينتصر الناس لأنفسهم ؟ من أنت أيّها الإنسان ؟ أيّها التراب الذى يمشى على التراب ويصير إلى التراب .

لا تغضب لنفسك ولكن اغضب لربك ، لا تغضب لدنياك ولكن اغضب لدينك .

فأين منّا من يغضبون لربهم ؟ وأين منّا من يغضبون لدينهم ؟ وأين منّا من يتنازلون عن حقوقهم لإخوانهم ؟ أين الأذلّة على المؤمنين ، الأعزّة على الكافرين ؟

نسأل الله عزّ وجلّ أن يفقّهنا فِى ديننا ، وأن يجعلنا من عباد الرحمن ﴿ الَّذِينَ

---

(١) حديث صحيح أخرجه مسلم فى كتاب(الفضائل) باب (حسن خلقه ﷺ) . أنظر (صحيح مسلم بشرح النووى : ١٥/ ٦٩) .

(٢) إحياء علوم الدين للغزالى (٣/ ١٧١) ط. دار المعرفة ببيروت ، وعزاه الحافظ العراقى فى تخريجه إلى الترمذى فى الشمائل .

يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ،أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾(١) .

أقول قولى هذا واستغفر الله لِى ولكم ، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* *

● **الخطبة الثانية :**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

من معارك الإسلام اليوم : معركة المسلمين فى أفغانستان .

قدّر الله لأمتنا الإسلاميّة فى هذا العصر أن تخوض معارك شتّى : معارك مع اليهودية العالميّة ، ومعارك مع الصليبيّة الغربيّة والشرقيّة ، ومعارك مع الشيوعيّة الدوليّة ،معارك فِى كلّ مكان .

ومن أعظم هذه المعارك : معركة إخواننا فى أفغانستان ، معركتهم مع الشيوعيّة الحمراء ، مع الإلحاد الأحمر ، الذى ينكر وجود الله عزّ وجلّ ، وينكر الآخرة ، وينكر النبوّات والرسالات ،وينكر القيم الأخلاقية ،وينكر الإسلام خاصّة .

الإلحاد الشيوعى يحارب الأديان جميعًا ،ولكنّه يخصّ الإسلام بمزيدٍ من الحرب والنقمة لعداوات تاريخيّة .

هذا الإلحاد الشيوعى الأحمر لم يكتف بالتسللّ إلى بلاد المسلمين ، وغزوها من الداخل عن طريق التضليل الماركسىّ والغزو الفكرى ، الذى اصطاد ضحاياه من أبناء المسلمين الذين جهلوا دينهم ، وجهلوا حقيقة رسالتهم .

لم يكفه هذا حتى أراد أن يغزو المسلمين بالسلاح ، وبدأ هناك فى أفغانستان ، وأقول لكم : إنّ أفغانستان تمثّل خطّ الدفاع بالنسبة للمسلمين جميعًا ، لو انهار هذا الخط سيزحفون على ما بعدها ويهدّدون هذه البلاد كلها .

ولذلك فإنّ المجاهدين فى أفغانستان لا يدافعون عن أرض الإسلام فى أفغانستان فقط ، ولكنّهم يدافعون عن شرف الإسلام ، وعن شرف الأمّة الإسلاميّة كلّها ، يدافعون عن كرامة هذا الدين ، وهم يقاتلون وليس لهم نصير إلاّ الله عزّ وجلّ .

---

(١) الزمر : ١٨ .

لقد بدأوا معاركهم بما معهم من مال قليل وسلاح ضئيل .. ببندقيّات قديمة ، ثمّ بدأوا يأخذون أسلحتهم من أعدائهم ، غنائم يغنمونها ، فكانت عندهم بعد ذلك دبابات وغيرها .

هؤلاء يحتاجون إلى العون .. إلى أن نعينهم بما نقدر عليه ، إذا كانوا يجودون بالدم ، فلا أقلّ من أن نجود بشيء من المال ، والله تعالى يقول : ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ .. ﴾ (١) ، قدّم الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس، لأنّه لا جهاد إلاّ بمال . وكما قال تعالى : ﴿ .. وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾ (٢) ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ .. ﴾ (٣) .

ومن فضل الله أنّه اشترى أنفسًا هو خالقها ، وأموالاً هو رازقها ، ثمّ أعطى الثمن غاليًا : جنّة عرضها السموات والأرض .

ويقول النبى عليه الصلاة والسلام : « جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم » (٤) .

الجهاد بهذه الثلاث :

الجهاد بالنفس ، والجهاد بالمال ، والجهاد باللسان، وفي عصرنا بالقلم أيضًا ، كلّ هذه الألوان من الجهاد .

ويقول عليه الصلاة والسلام - فيما جاء فى الصحيحين - : « من جهّز غازيًا فى سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازيًا فى أهله بخير فقد غزا » (٥) « من مات

---

(١) التوبة : ٤١ ، وتتمّتها : ﴿ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

(٢) البقرة : ٢٧٢ .

(٣) التوبة : ١١١ .

(٤) رواه أحمد ، وأبو داود، والنّسائى ، وابن حبان ، والحاكم ، عن أنس رضي الله عنه ، ورمز له السّيوطىّ بالصّحّة فى الجامع الصغير (١/ ١٤٣) قال المناوى : قال الحاكم على شرط مسلم ، وأقرّه الذهبى ، وقال فى الرياض بعد عزوه لأبى داود : إسناد صحيح (فيض القدير : ٣/ ٣٤٤ برقم ٣٥٧٨) .

(٥) رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، عن زيد بن خالد الجهنى رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/ ٣٧٣ برقم ٦٦٦) .

ولم يغز ولم يحدّث به نفسه ،مات على شعبة من النفاق » [1] ، ولكن إذا لم تستطع أن تغزو ، ولم تتح لك الفرصة لتغزو ، تستطيع أن تغزو بصورة أخرى : أن تجهّز غازيًا فى سبيل الله ، أو تساهم فِى تجهيزه، أو تخلف أهله بخير .

مليون ومائتا ألف شهيد فى أفغانستان !!

لأنّ هؤلاء من يقاتلون ؟!

إنّهم يقاتلون القوّة الثانية فى العالم ، إنّهم يقاومون إحدى الدولتين العظميين فِى هذا العالم، إنّهم يقاومون (الاتحاد السوفيتى) بأسلحته وخبراته وما عنده ، وهو لا يبالى أن يضربهم بالقنابل العنقوديّة ،والقنابل النابالم ، وبكلّ سلاح محرم دوليًّا، لأنّه لا يخاف الله ولا يستحى من النّاس .

ولهذا كان علينا واجب نحو إخواننا هؤلاء : أن نمدّ لهم يد العون ، أن نكون وراءهم بقلوبنا وألسنتنا وأموالنا حتى ينصرهم الله ، ونصرهم نصر لنا .. نصر للإسلام .. نصر لـ « لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله » ، ليظلّ الأذان مرتفعًا فى تلك البلاد التى فتحت منذ عهد الصحابة ، لتظلّ المئذنة ترسل : الله أكبر الله أكبر ، حِىّ على الصلاة ، حِىّ على الفلاح .

هؤلاء الذين يقفون على رؤوس الجبال والثلج يغطّيهم عن يمينهم وعن شمالهم ، ويعيشون بكسرة من الخبز ، أو حبّات من التمر، أو كأس من الشاى ، لا يطلبون فخرًا ولا يطلبون بهرجًا ، إنّما يريدون القليل والأقّل من القليل .

إنّ لّهؤلاء - كما قال عبد ربّ الرسول سيّاف رئيس اتحاد المجاهدين فى أفغانستان - حقًّا علينا .

فجودوا لهم - أيها الإخوة - وادفعوا ما استطعتم ،فالقليل على القليل كثير ، ﴿ .. وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾[2] ﴿ ... وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ، وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [3] .

---

(١) رواه مسلم ، وأبو داود ، والنّسائى ، عن أبى هريرة رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/٤٠٩ برقم ٧٥٧) .

(٢) سبأ : ٣٩ .

(٣) المزّمّل : ٢٠ .

نسأل الله عزّ وجلّ أن يتقبّل منّا ، وأن يقبلنا ، وأن يغفر لنا ما مضى ، وأن يصلح لنا ما بقى .

اللّهمّ انصر أمّة الإسلام ، اللّهمّ ارحم أمّة الإسلام ، اللّهمّ انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام ، اللّهمّ انصرنا على اليهود ، اللّهمّ انصرنا على الشيوعيّين ، اللّهمّ انصرنا على الصليبيّين المستعمرين ، اللّهمّ انصرنا على الكفرة الملحدين ، اللّهمّ انصرنا على أعدائك أعداء الدين ، اللّهمّ إنّا نجعلهم فى نحورهم ونعوذ بك من شرورهم .

﴿ . . . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

وصلّ اللّهمّ على عبدك ورسولك محمّد ،وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٢) .

وأقم الصلاة .

* * *

(١) آل عمران : ١٤٧ .

(٢) الأحزاب : ٥٦ .